مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٩) العدد (١٣) ٢٠٢٥
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (9) No. (13) 2025

تجلّيات التّرف الاجتماعي في شعر ابن خفاجة

د. صالح ابراهيم نجم*

د. جمانة ابراهيم داؤد**

نارين زهر الدين محسن***

(تاريخ الإيداع ٩/٢١ /٢٠٢٥. قُبِل للنشر في ١٢/١٧ /٢٠٢٥)

□ ملخّص □

تنطلق هذه الدراسة لتكشف النقاب عن حياة البذخ والرفاهية في الأندلس من خلال عيون شاعرها ابن خفاجة، فقد كان مؤرّخاً دقيقاً لنمط العيش الاجتماعيّ الراقي، وتكمن أهمية البحث في انتقاله من دراسة الشعر بوصفه نصّاً أدبيّاً خالصاً إلى عدِّه وثيقةً تاريخيّةً تعكس البعدَ الاجتماعيَّ والاقتصاديَّ، مُستخدِماً المنهج الوصفيّ التحليليّ لرصد مظاهر الترف وتحليل دلالاتها، وسنقوم برحلةٍ عبر ستّة تجلّيات لهذا الترف، نبدأ من الملبس، مروراً بالعطور وبريق الحلي والجواهر، وصولاً إلى عالم الغناء والطرب، وبهاء المسكن، وانتهاءً بمجالس الخمر التي برع في وصفها. ومن النتائج التي توصّل إليها البحث أنّ ابن خفاجة مزج في شعره بين النعمة الحضارية والجمال الطبيعيّ في صورةٍ فريدةٍ تُعبّر عن روح الحضارة الأندلسيّة في أوج ازدهارها.

الكلمات المفتاحيّة: التّرف الاجتماعيّ، شعر ابن خفاجة.

* مدرّس في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طرطوس، سورية.

** مدرّس في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طرطوس، سورية.

*** طالبة ماجستير في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طرطوس، سورية.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٩) العدد (١٣) ٢٠٢٥
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (9) No. (13) 2025

Manifestations of Social Luxury in the Poetry of Ibn Khafaja

Dr. Saleh Ibraheem Njm*
Dr. Jumana Ebrahim Daoud**
Narin Zahr Alden Mohsn***

□ ABSTRACT□
(Received 21/9 /2025. 17 /12/2025)

This study aims to unveil the life of luxury and affluence in al-Andalus through the eyes of its poet, Ibn Khafaja, who was a precise chronicler of the refined social lifestyle of his time. The importance of this research lies in its transition from studying poetry as a purely literary text to considering it as a historical document that reflects social and economic dimensions. The study employs the descriptive-analytical method to observe the manifestations of luxury and analyze their meanings. It embarks on a journey through various aspects of this opulence, beginning with clothing, passing through perfumes and the brilliance of ornaments and jewels, reaching the world of singing and music, the elegance of dwellings, and concluding with the wine gatherings that he skillfully described. The research concludes that Ibn Khafaja combined in his poetry both cultural prosperity and natural beauty in a unique image that expresses the spirit of Andalusian civilization at the height of its flourishing**.**

Keywords: Social Luxury, The Poetry of Ibn Khafaja.

* Lecturer in the Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Tartous, Syria.
** Lecturer in the Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Tartous, Syria.
*** Master´s student in the Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Tartous, Syria.

المقدّمة:

يُمثّل شعر الأندلس ذروة النضج الفنّيّ في الحضارة العربيّة الإسلاميّة؛ حيث امتزجت أصالة المشرق بروعة المغرب، وأنتجت نسيجاً أدبيّاً فريداً يجمع بين عمق المضمون وجمال الصورة، وفي هذا العالم الزاخر بالجمال والإبداع يبرز ابن خفاجة بوصفه أحد أبرز الشعراء الذين أبدعوا في وصف الحياة الأندلسيّة بتفاصيلها الدّقيقة كلّها، وتأتي هذه الدراسة لتُنقِّبَ في أعماق هذا التراث الشعريّ الثريّ، مُبرِزةً كيف تحوّلت مظاهر الترف الاجتماعيّ إلى نصوص أدبيّة خالدة، فشعر ابن خفاجة لا يقتصر على وصف الطبيعة وحسب، بل يتعدّاها ليكون سجلّاً دقيقاً يوثّق التفاصيل الحياتية في عصره، وذلك من خلال ستّة محاور رئيسة، تبدأ بالترف في الملبس، فالأقمشة الفاخرة والألوان الزاهية والتفاصيل الدقيقة في الشّعر تُقدِّم لنا شهادةً حيّةً على براعة الصناعة الأندلسيّة، واهتمام المجتمع بالمظهر الخارجيّ، ويأتي دور العطور كمعلمٍ ثانٍ من معالم الترف؛ حيث تتحوّل الروائح الزكيّة من مجرّد وسيلة للتعطّر إلى رمز للأناقة والثقافة، فالمسك في شعر ابن خفاجة ليس مجرّد رائحة وحسب، بل هو علامة دالّة على الرقي الاجتماعيّ والحسّ الجماليّ المرهف، وأمّا الحلي والجواهر فتُشكِّل العالم البرّاق في قصائده؛ حيث تتحوّل من أدوات للزينة إلى رموز للجمال والثروة، ولا يقلّ الغناء أهمّيّةً في هذه المعادلة الجماليّة، فهو ليس مجرّد وسيلة للترفيه وحسب، بل هو فنٌّ راقٍ يرتبط بالذوق الرفيع والحسّ المرهف، ويأتي الترف في المسكن ليكتملَ به المشهد؛ حيث يتحوّل البيت من مكانٍ للسكن إلى تحفةٍ معماريّةٍ، وأخيراً، تصل ذروة الترف في وصف مجالس الخمر والساقي أسود اللون؛ حيث يتحوّل اللون الأسود من صفة عاديّة إلى عنصرٍ جماليّ مثير للدهشة، ومن خلال هذا البحث نسعى إلى الكشف عن الدور الذي أدّته الثروة المادّيّة في إثراء التجربة الفنية، وكيف استطاع شاعر كبير مثل ابن خفاجة أن يحوّل مظاهر الترف إلى رموز شعريّة تُخلِّد جمال الحضارة الأندلسيّة.

أهمّيّة البحث وأهدافه:

تكمن أهمّيّة البحث في انتقاله من دراسة الشعر بوصفه نصّاً أدبيّاً خالصاً إلى اعتباره وثيقةً تاريخيّةً تعكس البُعدَ الاجتماعيّ والاقتصاديّ، ويهدف البحث إلى الكشف عن الدور الذي أدّته الثروة المادّيّة في إثراء التجربة الفنية، وكيف استطاع ابن خفاجة أن يحوّل مظاهر التّرف إلى رموز شعرية تُخلِّد جمال الحضارة الأندلسيّة.

أقسام البحث:

١. الترف في الملبس.
٢. العطور.
٣. الحلي والجواهر.
٤. الغناء.
٥. الترف في العمران (السكن).
٦. مجالس الخمر.

منهج البحث:

سيعتمد هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، الذي سيكون دليل البحث وأداته في دراسة تجلّيّات الترف الاجتماعيّ في شعر ابن خفاجة.

الدراسات السابقة:

تجليات الترف في بنية القصيدة الأندلسيّة، عصر ملوك الطوائف (دراسة)، أماني أحمد عيد طه، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب (وزارة الثقافة)، ط٣، دمشق، ٢٠١٩م.

يدرس هذا الكتاب ظاهرة الترف بمظاهرها المادية والأدبية والفنية، وأثرها العميق على بنية القصيدة الأندلسية، ومضامينها خلال فترة بالغة الخصوصيّة في تاريخ الأندلس، وهي عصر ملوك الطوائف، وترى الكاتبة أن الترف لم يكن مجرّد ظاهرة اجتماعيّة عابرة، بل كان قوّةً محرّكةً أعادت تشكيل الذوق العام والفنّيّ، وانعكس ذلك بشكل مباشر على الشعر، فجعل منه مرآةً تعكس هذا الواقع المترف، ووسيلةً للتفاخر، ويعدّ هذا الكتاب دراسةً شاملةً لظاهرة الترف في عموم القصيدة الأندلسيّة، ويغطّي فترةً زمنيّةً كاملةً، ويعتمد على عيّناتٍ متعدّدةٍ من شعراء العصر، وأمّا بحثنا فيعدّ دراسةً مركّزةً لشاعرٍ واحد، ويتتبع تطوّر الظاهرة في تجربة إبداعيّة فرديّة.

أوّلاً: مفهوم التّرف لغةً واصطلاحاً:

الترف في اللغة هو: التّنعُّمُ[١]، "والتُّرفةُ بالضّمِ النّعمةُ"[٢]، "والتُّرفةُ الطّعامُ الطّيّبُ"[٣]، "أمّا المُترَفُ، فهو الشّخصُ الذي قد أبطرَتهُ النّعمةُ وسعة العيش"[٤]، وهو أيضاً: "المُتنعّم المُتوسّع في ملاذّ الدّنيا وشهواتها"[٥]. والترف في الاصطلاح هو مُجاوزةُ حدّ الاعتدال في التّنعّم وإشباع رغبات النّفس، فالمترفون إذاً حريصون على الزيادة في أحوالهم وعوائدهم، وساعون إلى بلوغ الغاية في حاجات النفس الحسّيّة من المآكل والمشارب والمساكن والمراكب[٦].

ثانياً: التعريف بابن خفاجة:

هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري الأندلسي، وهو من أهل جزيرة شقر الموجودة في شرق الأندلس، وله ديوان شعر مطبوع، وقد غلب على شعره وصف الرياض ومناظر الطبيعة[٧]، وكان مدّاحاً، وأغلب مدحه في أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، واعتُبِرَ شاعرَ غزل مع أنّه لم يُكثر من هذا الفن؛ إذ أدرج أبياتاً منه في ثنايا قصائده المتنوّعة، وكان أيضاً من الكُتّاب البُلغاء، وصاحبَ مذهب كتابيّ وأسلوب أدبيّ يوازن بشعر أبي تمّام ومذهبه، ويُعدّ شعره من النوع الوجدانيّ الإبداعيّ المملوء بالصور والأوصاف الدقيقة، مع تفرّده بالوصف والتصرّف

[١] يُنظر: لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، ط١، بيروت، د. تا، ج٩/ ص١٧.

[٢] مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د. تا، ج١/ ص١٥٠.

[٣] المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي المعروف بابن سيده، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٩/ ص٤٧٦.

[٤] لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور الإفريقي المصري، ج٩/ ص١٧.

[٥] النهاية في غريب الأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناهي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، ج١/ ص١٨٧.

[٦] يُنظر: الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم، ناصر بن عبد الله العمار، دعوة الحق، مكة المكرمة، ١٩٩١م، ص٩.

[٧] يُنظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م، ج١/ ص٥٧.

فيه، وكان شعره رقيقاً، وألفاظه أنيقة، غير أنّ ولعه بالصنعة واعتماده على الاستعارات والكنايات والتورية والجناس وغير ذلك من المحسّنات البديعيّة واللفظيّة جعل بعض شعره متكلّفاً، وأوقع بعضاً آخرَ منه في الغموض[١].

ثالثاً: تجلّيات الترف الاجتماعيّ في شعر ابن خفاجة:

يشير مصطلح الترف الاجتماعيّ في الأدب الأندلسيّ إلى الوصف المُتكرِّر لمظاهر الحياة، هذا الوصف الذي يعكس ازدهار الحضارة الأندلسيّة واحتكاكها بالثقافات الأخرى، و "يُعدُّ الأدب الأندلسيّ من أهمّ الآداب التي عكست الواقع الجديد الذي عاش الأندلسيّيون في كنفه بكلّ تطوّراته وأحواله، ولعلّ أهمّ ما يمتاز به هذا الأدب إحاطته بالمعاني المُبتكَرة التي توحي بها الحضارة [...]، فقد كانت الأندلس دارَ خصب وغنى، وموطنَ حضارة ولهو وجمال، فانصرف أهلها إلى مُتَع الحياة يتذوّقونها لما لها من تأثيرٍ في نفوسهم"[٢]، فقد كان الأندلسيّون يعيشون في جوٍّ من الترف واللهو، ويسكنون القصور والأبنية الفاخرة، ويحرصون على رفاهية العيش ومظاهرها في المأكل والمشرب والغناء والحلي والجواهر، وذلك كلّه انعكس بشكلٍ واضحٍ على شعراء الأندلس، فألهبت مخيلتهم ومشاعرهم، وكتبوا أجمل القصائد عن حياتهم الاجتماعية المترفة[٣].

وقد تمكّن الشاعر ابن خفاجة من كتابة أجمل الأبيات التي تعكس مظاهر التّرف في مجتمعه، وسوف نقسّم هذه المظاهر وفقاً لما يلي:

١. الترف في الملبس:

اهتمّ الأندلسيّون بالمظهر الأنيق والمرتّب والنظيف، فهذا دليل على سمة التّرف والرقي الموجودة بشكل فطريّ عندهم، فهم "أشدُّ خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون، وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلّق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه"[٤]، وكان لباس أهل الأندلس الغالب في الشتاء هو الملفّ المصبوغ المنسوج من الصوف، أمّا في الصيف فكانوا يرتدون الكتّان والحرير والقطن والأردية الإفريقية والمقاطع التونسية والمآزر والمرعزي المستخلص من شعر الماعز، كما كانوا يَلبسون الصوف الأصفر والأخضر، أمّا الأصفر فكان مخصّصاً لليهود[٥]، وبخصوص الاستقبال الذي خصّه أهل غرناطة للسلطان أبي الحجّاج يوسف الأوّل بوادي آش آش شمال شرق غرناطة، فقد ذكر ابن الخطيب أنّ الأهالي استقبلوه بملابس بيضاء في قوله: "واستقبلتنا البلدة –حرسها الله– في تبريز سلب الأعياد احتفالا، وغَصَبها وحسنها وجمالها، نادى بأهل المدينة، موعدكم يوم الزينة، فسمحت الحِجال بربّاتها، والقلوب بحبّاتها، والمقاصر بحورها، والمنازل ببدورها، فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب، وتدافع البدور بالصدور، بيضاء كأسراب الحمام"[٦]، ويعدُّ "موضوع الثياب من الموضوعات المهمّة في تاريخ الحضارة الأندلسية لأنها

---

[١] يُنظر: ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس، د. حسن محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م، ص٢٤–٢٥.

[٢] تجليات الترف في بنية القصيدة الأندلسية، عصر ملوك الطوائف (دراسة)، أماني أحمد عيد طه، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب (وزارة الثقافة)، ط٣، دمشق، ٢٠١٩م، ص٧.

[٣] يُنظر: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجبل، ط١، بيروت، ١٩٩٢م، ص١٠٠–١٠٣.

[٤] نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني: تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، ١٩٨٨م، ج١/ ص٢٢٣.

[٥] يُنظر: المصدر السابق، ص٢٣٣.

[٦] ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٩٨٠م، ج٢/ ص٢٥٠.

تدلّ على جوانب ثقافية واجتماعية متنوّعة، نذكر منها على سبيل المثال تطوّر الذوق الاجتماعي والفروق الاجتماعية والمادية في المجتمع الأندلسي"[1]، وإسراف بعض نساء الأندلس في الزي والزينة لم يكن بأقل من إسرافهن في بقية السلوك الاجتماعي، فقد كنّ يعمدن إلى التفنّن في لبس المصبغات والمذهّبات والديباجات من الملابس والتماجن في أشكال الحلي إلى درجة الغلو[2]. ونتيجةً لهذا كلّه فتح الباب أمام شعراء العصر الأندلسي لكي يستلهموا منه مادّةً مهمّةً لقصائدهم؛ إذ دار على ألسنة شعراء الأندلس وصف الملابس، وبرع في هذا المجال الشاعر ابن خفاجة الأندلسي، فمزج بين الطبيعة والملابس قائلاً:

يا رُبَّ مائسةِ المعاطفِ تزدَهي، من كلِّ غُصنٍ خافقٍ، بوِشاحِ
مُهتزَّةٍ، يرتجُّ، من أعطافِها، ما شِئتَ من كفَلٍ، يموجُ، رَداحِ
نَفضَت، ذوائبَها، الرّياحُ عَشِيَّةً، فتملَّكتها هِزَّةُ المُرتاحِ[3]

نلاحظ تداخل الطبيعة مع الوشاح والمرأة؛ فنجد ابن خفاجة يخلق صورة بصرية قوية من خلال ربط حركة الغصن الناعم بحركة المرأة الرشيقة في صور ذات طابع حسي وجمالي، ويُشبّه غصن الشجرة بالوشاح الذي يُزيّن ثوب المرأة مما يزيد من جمال الصورة وروعتها؛ فقد ربطها بعالم التّرف والزينة، وهذا كلّه يتماشى مع شعر التّرف الذي يُركّز على الجمال والمباهج الدنيوية، ويحتفي بجمال الطبيعة بوصفها أحد أشكال الترف والمتعة في الحياة.

واهتمّ ابن خفاجة بوصف الملابس المنسوجة من الحرير، فذكرها في وصفه لجارية، إذ يقول:

تُثِيرُ إليها كلُّ راحةِ سُوسَنٍ، وتَشخَصُ فيها كلُّ مقلة نرجس
فحفَّت بها ريحٌ بَلِيلٌ وربوةٌ، بمَسرى غَمامٍ، جادَها، مُتَبجِّس
فجاءَتْ تروقُ العينَ في ماء نُضْرةٍ، تشُنُّ، على أعطافها، ثوب سُندُس[4]

أظهر ابن خفاجة إبداعه الخلّاق من خلال تمكّنه من دمج الطبيعة مع المرأة والحرير في بيت شعريّ، فنجده في البيت الأخير يصوّر جمال الجارية، فوجهها يشعّ نضارة وحيويّة كالماء الصافي، وهو تشبيهٌ يُبرز صفاءها، ويُضيف بُعداً جماليّاً، واستخدامه كلمة تشنّ يُظهِرُ كم أنّ زينة تلك الجارية واضحة، وأمّا بتوظيفه كلمة سندس فإنّه يُضيف رمزيّةً للثراء والترف؛ إذ إنّ السندس نوعٌ من الحرير الفاخر، ممّا يعكس طبيعة الحياة المترفة، التي تُجسّدها الجارية، فتظهر في هذا البيت براعة ابن خفاجة في استخدام الصور الفنّيّة المبتكرة؛ حيث يربط بين جمال الطبيعة وجمال الجارية ليُقدّمَ لوحةً فنّيّةً بصريّةً غنيةً بالتفاصيل الحسّيّة، وتُجسّد مفهوم الجمال والأناقة والترف في العصر الأندلسي.

٢. العطور:

عاش العطر منذ قديم الزمان في ذاكرة الناس، بوصفه مادّةً قريبةً من الإنسان ومن حواسه وآفاق حياته، وكأنّه مادة ترويحية تحتفظ بقدرٍ كافٍ من الجمال، وهو وسيلةٌ من وسائل طلب الزينة، ومن المعروف أنّ الزينة ترتبط بمستوى المعيشة وبالتقدّم الحضاريّ، وقد ارتبطت مسيرة العطر بالتاريخ، بوصفه وسيلة من وسائل الترفيه، وهو جزءٌ من حركة الحياة الإنسانية، وبالتالي هو جزءٌ من حياة العربيّ منذ أقدم العصور، والعطر مادة يشمّها الإنسان، تطرد

[1] تجليات الترف في بنية القصيدة الأندلسية، عصر ملوك الطوائف (دراسة)، أماني أحمد عيد طه، ص٩٢.
[2] الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٩٧٩م، ص٤٧.
[3] ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م، ص٧٠.
[4] ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، ص١٣٦.

عنه هواجس الخوف، وتُقرّب منه الإحساس بالطمأنينة، وتمنحه شعوراً بالقوّة؛ لأنّه ارتبط بحياة الإنسان الدينيّة، وبالذات حاسة الشمّ التي هي إحدى الحواس الإنسانيّة المُهمّة، وهو صاحب الإنسان في رحلته الدّينيّة والثقافيّة والاقتصاديّة، واعتبر العرب قبل الإسلام استعمال العطر أكبر دليلٍ على الفرح، وكان الإقبال على العطور تحديداً أيام الأعياد والأفراح، وكان العرب يُقدّمونه نذراً لتطييب المعابد والأصنام، أمّا بعد الإسلام فتشبّع العرب بروح العطر بمكّة؛ إذ كانت سوقاً تجاريّة غالب أهلها تُجّار، ومنهم المسلمون الأوائل الذين هاجروا فيما بعد إلى المدينة المنوّرة، وهذا ما يبدو فعلاً على اهتمام النبي بالطيب وكثرة استعماله، وانتشر العطر في جميع الدول العربيّة حتّى وصل إلى الأندلس، فقد كانت بلاداً أرضها مزروعة بالزهور، وتنشر في أصقاعها الرياحين وكلّ لون بديع، فافتتن الشعراء بوصفها، ورغب الأدباء في التعبير عن حبّها، فانتشرت فيها العطور، ففي قرطبة بابٌ يُقال له باب العطّارين ولعلّه سُمّي بذلك لمجاورته دكاكين العطّارين؛ ممّا يُشير إلى مكانة العطور وأهمّيّتها في بلاد الأندلس[1]، وقد نال العطر اهتمام شعراء الأندلس، ومن الشعراء الذين تناولوا العطر في قصائدهم الشاعر ابن خفاجة الأندلسي، فقد ربط بين الطبيعة والعطر قائلاً:

تحمّلْ إلى قاضي القضاةِ تَحِيَّةً   تبيتُ بمَلقى رَحلِه تَترددُ
تَضُوعُ، كما فاحَت مع الفجرِ روضةٌ   وطاب، بريح، المَندَلِ الرَّطبِ مَوقِدُ
وتهوِي إلى لَثْمِ البساط، وإنّما   تُصلِّي إلى رُكنِ المعالي، فتسجُدُ[2]

يتجلّى الترف في قول ابن خفاجة من خلال استخدامه لصور حسية غنية في وصفه للطبيعة؛ إذ يربط بين جمال الروضة التي يفوح عطرها مع شروق الشمس، والرائحة العَطِرة للعود عند إشعاله، فيعكس هذا الربط بين عناصر الطبيعة الفوّاحة والمباخر الشرقيّة الفاخرة مظاهرَ الترف والتنعّم بالحواس، ويُجسّد رؤية الشاعر للحياة المترفة التي تجمع بين الجمال الطبيعيّ والرفاهية المادّيّة.

وفي موضعٍ آخرَ دمج ابن خفاجة بين العطر والخمرة في بيت شعريّ واحد، إذ يقول:

وَبيضاءَ، في صفراءَ، تحمل نَفْحَةً   تَنَفَّس عنها المَندَلُ الرطبُ والجَمرُ
خلَعتُ رِداءَ الصَّبر فيها علاقةً،   ويَحسُنُ، إلّا في هوى مِثلِها، الصَّبرُ
ولا غَروَ أنْ تَروى بها عَينُ ناظرٍ،   وباطِنُها ماءٌ وظاهرها خَمرُ[3]

في البيت الأوّل يصف الشاعر الكأس بأنها بيضاء في صفراء، وهي صورةٌ حسّيّةٌ تجمع بين لونين مُتناقضين مع وجود تناسق بينهما، ممّا يخلق لوحةً بصريّةً غنية بالجمال، كما يُشير التضاد اللونيّ هنا إلى حسن الوعاء وفخامته، ويوظّف الشاعر الاستعارة من خلال تشبيه الخمرة بالكائن الحي الذي يتنفس، ممّا يمنح الشراب حياةً ورقّةً وخفّةً تشبه الأنفاس الرقيقة، ويُشير استخدام المندل الرطب مصدراً للنفحة العطريّة إلى بذخ ورفاهية؛ فالمندل من الأطياب الفاخرة، وفي موضعٍ آخرَ يمزج الشاعر بين المرأة والعطر قائلاً:

ووجهٍ تَخالُ الخالَ، في صحن خدّه،   فُتاتة مِسكٍ، فوق جُذوةِ نارِ[4]

---

[1] يُنظر: العطر عند العرب، قيس كاظم الجنابي، مؤسسة الانتشار العربي، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠١٥م، ص٣٣-٤٣-٥١-٨١.
[2] ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، ص٩٠.
[3] المصدر السابق، ص١٢٤.
[4] المصدر السابق، ص١١٨.

استعان ابن خفاجة في هذا البيت بالتشبيه؛ إذ شبّه الشّامة السوداء على خدّ المحبوبة الأحمر بفتاتة المسك الأسود الموضوعة فوق موقد من الجمر المشتعل، وقد وظّف التشبيه هنا ليُعبّر عن جمال الوجه وجاذبيّته، وهو ما يعكس التّرف في هذه الفترة، ويمثّل المسك في هذا البيت رمزاً للفخامة والثراء، بينما ترمز جذوة النار إلى الحب والجاذبية والسحر، فالشاعر هنا وحّد هذين الرمزين؛ ليخلق صورةً فنّيّةً متكاملةً، تعكس الحضارة الأندلسيّة، التي كانت تهتم بجمال المظهر والكمال الحسّيّ في الحياة اليوميّة.

٣. الحلي والجواهر:

يعدُّ الحديث عن الحلي والجواهر أمراً مهمّاً في هذا البحث؛ إذ تنوّعت الحلي بشكلٍ كبيرٍ في الأندلس، وتميّز العصر الأندلسيّ بالازدهار والثراء والتّرف، فالإنسان كلّما ازداد تمدّناً تفهّم معنى الفنّ المستخلص من الجمال، والقول إنّ الفنَّ بصورةٍ عامّةٍ، والأدبَ منه بصورةٍ خاصّةٍ، وثيقُ الصلة بالحياة، مُسلَّمةٌ تُقدّمها لنا صلتنا بالواقع، فالظواهر كلّها تدلّ على وجود صلةٍ حيّةٍ ومتفاعلةٍ بين الفنّ والحياة، سواء أكنّا نعني بالحياة جانبها السياسي أم الاقتصادي أم العقلي، أم جانبها الاجتماعي الذي يعدّ أهمّ الجوانب وأكثرها بروزاً وتأثيراً، نظراً لأنّ الحياة الاجتماعية بمظاهرها المتعدّدة أهمّ رافدٍ للشعر من موروثنا الأدبي[١]، فيظهر تأثير البيئة الاجتماعيّة المُترفة في الشعر الأندلسي؛ إذ اشتهر العديد من شعراء الأندلس، وكان من بينهم ابن خفاجة الذي اهتمّ بموضوع الجواهر والحلي في قصائده، ففصّل في إحدى قصائده في وصف خاتم مرصّع، ممّا يبرز الدّقّة والبراعة في صنعه وصياغته فقد أدخل الطبيعة في وصفه للخاتم، إذ يقول:

ما ضارَ لابسَ مِثلِه، من خاتَمٍ، أن لا يَشُبَّ مع الظلام ذُبالا
مُتألّقٌ أعداهُ لابسُ حِليةٍ، فَسَما جلالاً واستَزاد جمالاً
مُتحمّلاً فَصّاً يرُوقُ، وحَلْقَةً من جُذوةٍ وَقَدتْ، وماءٍ سالا[٢]

يخلق ابن خفاجة في البيت الأوّل صورةً فنّيّةً دقيقةً، تجعل الخاتم يُضيء ليلاً، فهو لا يحتاج إلى فتيل المصباح؛ لأنّ بريقه الخاصّ يُغني عن ذلك، ويستخدم الشاعر التناقض بين النور والظلام لإبراز قيمة الخاتم، ويوظّف الفعل يشبّ بدلاً من يشعل ليُضفي دقّةً ووصفاً عميقاً لقوّة بريق الخاتم الذي يُضيء من تلقاء ذاته، وهذا كلّه يوحي بأنّ صاحب الخاتم يتمتّع بمكانةٍ عاليةٍ وثراءٍ فاحشٍ، لدرجة أنّ مجوهراته تُضاهي مصادرَ الضوء، وتتجاوزها في التوهّج والجمال، ويُقدّم الشاعر وصفاً مُميّزاً في تصوير فعل الخاتم، مُستخدِماً الفعل يروق الذي يوحي بجمال الفعل وتأثيره المُريح للنظر، ممّا يدلّ على كونه جوهرةً ثمينةً، ويُشبّه الشاعر الحلقة الذهبيّة للخاتم بالنار المُشتعلة، ممّا يُعطي لوناً ناريّاً وبريقاً قويّاً يدلّ على فخامتها وقيمتها، ويصف ابن خفاجة تفاصيل دقيقة جدّاً في تصميم الخاتم ويُشبّهها بالماء السائل أو اللامع، ممّا يعكس الدقّة المتناهية في التصنيع والجمال الرقيق والناعم الذي يُضفيه على الخاتم، وبذلك تُجسّد هذه الصورة المادّيّة للخاتم الثروةَ والرقيَ في العصر الأندلسيّ بدمج عناصر الطبيعة والمعادن الثمينة لإبداع لوحةٍ فنّيّةٍ غنيةٍ بالجمال والترف.

ويصفُ ابن خفاجة خاتماً آخرَ بديع الحسن قائلاً:

---

[١] تجليات الترف في بنية القصيدة الأندلسية، عصر ملوك الطوائف (دراسة)، أماني أحمد عيد طه، ص٧٠.

[٢] ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، ص١٨٢.

ومُرَقرَقِ الإفرِنْدِ أبْرَقَ بَهجةً، ودجا فأطلع، في الظلام، ضياءَ
وتختَّمَت، من فصِّه بغَمامةٍ، كَفٌّ تكون على السَّماحِ سماءَ
ما إن تَرِفُّ لها بنفسَجيةٌ به، حتّى تَرِقَّ لها، فتجري ماءَ[١]

يرسم ابن خفاجة صورةَ هذا الخاتم فيُشبّه لمعانه بالنجم أو بالضوء المنبعث من الظواهر الطبيعيّة المضيئة وسط الظلام، ممّا يدلّ على اهتمامه بالجمال الطبيعيّ وتناغم عناصر الطبيعة مع الجمال، ويُمثّل الفعل أبرق مظهراً من مظاهر الترف؛ إذ إنّ الألوان المشرقة تعكس الجمال الفاخر والترف، ويكشف البيت عن مظاهر الترف من خلال وصف الجمال الطبيعيّ الفاخر للخاتم، وهو ما يعكس ثراء الشاعر وقدرته على اقتناء الأشياء النادرة، ويُكمل الشاعر وصفه بتصوير فص الخاتم فيشبّهه بالغمامة، ويشبّه كفّ صاحب الخاتم بالسماء؛ فقد وظّف هذا التشبيه لخلق صورةٍ حيّةٍ، تدمج بين دقّة صياغة الخاتم والمحاكاة للطبيعة، واستخدم ابن خفاجة كلمة السماح والسماء للتأكيد على أنّ شخصيّة من يرتدي الخاتم هي شخصيّةٌ تتّصف بالسماحة والعطاء الكبير، فيظهر الترف في هذا البيت من خلال قدرة الشاعر على امتلاك خاتم يرتبط بمظاهر الطبيعة، ويعكس ذلك ثراءً وذوقاً رفيعاً في اقتناء الأشياء الثمينة التي تحمل جمالاً طبيعيّاً، أمّا الترف في البيت الثالث فيبرز من خلال تصوير فصّ الخاتم بلون بنفسجي يتدفّق منه الماء، فاللون البنفسجي يمثّل في هذا السياق رمزاً للترف والندرة والغنى، ويُشير إلى المكوّنات الثمينة والمجوهرات التي تدلّ على رقي الذوق ورفاهية العيش، ويصوّر الشاعر هذا اللون الفاخر وكأنّه ينصهر ويتحوّل إلى ماء متدفّق، ممّا يُضيف إلى الصورة بُعداً حيويّاً وإحساساً بالخفّة والنقاء، وقد استخدم الفعل ترقّ ليعبّر عن الرقة الشديدة وليشير إلى درجةِ نقاءٍ غير عادية، وهو ما يبرز مدى فخامة الفصّ وجودته.

٤. الغناء:

ساعد الازدهار الاقتصادي في المجتمع الأندلسي على انتشار الموسيقا والغناء بأنواعه كلّها، ليشمل مجالسَ الأنس والمناسبات الاجتماعية، فقيل إنّ الغناء انتشر في الأندلس "انتشاراً لا مثيل له حتى لقد كان الطرب يغشى كلّ دارٍ، وكان لقدوم زرياب تلميذ إسحق الموصلي يد مشكورة في رقي الغناء وتنسيق ضروبه، وسرعة ذيوعه [...]، وكان المغنّون يروون الكثير من الأشياء الرائعة، ويتغنّون بها [...]، وكثر المغنّون والمغنّيات في ربوع الأندلس كثرة تستلفت النظر وفي طليعتهم: حمدونة بنت زرياب، وهندية، وغزلان، وعبد الوهاب الحاجب فريد عصره، ونسيج وحده في براعة الغناء وعذوبة الألحان ورواية الأشعار"[٢]، وإنّ العامل الأهمّ والأساس في ذيوع الغناء والموسيقا في الأندلس كان الطبقات العليا في المجتمع الأندلسي؛ كونها الأقدر على استقطاب المغنّين والمغنّيات، وعقد مجالس الأنس والقيام بتجهيز مستلزماتها كلّها، فقد ظهر عندهم "طبقة أرستقراطية مرهفة الأذواق، رقيقة الطباع ترى في الموسيقا ومجالس الأنس والطرب وحفلات الطرب خير ما يرفّهون به عن تلك الأذواق المرهفة والطباع المترفة، وهذا هو السبب المباشر في تقدّم صناعة الغناء في ذلك الزمان [...]، وفي استفاضة مجالس الأنس والطرب"[٣]، ولهذه المجالس شروط وعادات عديدة؛ ألا وهي: "أن يكون الغناء قوامها، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصبغة الأنيقة، وأن يزيّن المجلس بالأزهار

[١] المصدر السابق، ص١٠.
[٢] الأدب الأندلسي التطور والتجديد، د. محمد عبد المنعم خفاجي، ص١١.
[٣] المصدر السابق، ص١١٠- ١١١.

والرياحين، وألا يحضرها إلّا من كان مهذّباً، خفيف الروح حاضر البديهة، قادراً على قول الشعر وارتجاله، فضلاً عن تذوّقه وروايته عندما يقتضي المقام ذلك"[1]، وقد تقبّل الأندلسيّون الغناء قبولاً حسناً، وقد تقدّم من الأخبار ما يقوم دليلاً على ذلك، وأقبل على سماعه وحضور مجالسه العامّة والخاصّة، وأتقنه أحياناً بعض كرام الناس مثل الأمراء[2]، واهتمّ الأندلسيون جميعاً بالغناء الرّقيق، فلا يتردّد عن سماعه عالم أو فقيه[3]، ومنذ عهد عبد الرحمن الداخل كان يُستجلب إلى الأندلس العديد من المغنّيات المشرقيات، ويبذل في شرائهنّ واستقدامهنّ المالُ الوفير، وقد أُدخل المغنّون بعد المغنّيات، فأثّر كلاهما في انتشار الأشعار المشرقيّة في البنية الأندلسيّة، وأمّا تطوّر فنّ الغناء في الأندلس فقد أخرجه عن التبعيّة المطلقة وجدّد فيه، وقد برع مغنّون أندلسيّون، أهمّ ما يميّزهم ويلاحظ فيهم أنّهم من نوابغ الشعر، فكانوا يغنّون من شعرهم، ويلحّنون لأنفسهم، وكان لشعرهم شيوع وانتشار كبير[4]. ويعدُّ "الغناء المشرقيّ الوافد إلى الأندلس عاملاً مهمّاً في التذوّق الأندلسيّ وتربيته؛ إذ إنّ للغناء دوراً بارزاً في بعث ذوق فنّيّ جماليّ في الأدب والنقد معاً، وقدرةً على توجيه الشعر وتحديد قوالبه"[5]، وقد برز العديد من الشعراء الأندلسيّين الذين وصفوا المغنّين والمغنّيات، ومنهم الشاعر ابن خفاجة الأندلسي، فهو لم يُخصِّص قصيدةً محدّدةً لوصف المغنّين بشكلٍ تفصيليّ، بل تناولهم بشكل عام في قصائده، وخاصّة في قصائد الغزل؛ فكان يُركّز على جمال أصواتهم وإيقاعهم، وعلى مهاراتهم الصوتيّة، وعلى قدرتهم على إثارة المشاعر، فيستخدم أسلوباً وصفيّاً يوحي بالاستمتاع وبالسماع، ويظهر هذا في استخدامه للكلمات التي تعكس الرّقّة والجمال، وتوحي بالتأثير المبهج الذي يتركه المغنّي في من حوله، فنراه يتغزّل بأحد المغنّين قائلاً:

ومفرِّدٍ، هزِجِ الغناء، مطرِّبٍ، يُلقى به ليلُ التمامِ، فيَقصُرُ
غازَلتُه حيثُ المُدامةُ والحَبابةُ وَجْنةٌ تدمى وعَينٌ تنظُرُ
فكأنّه، والسكرُ يَلوي عِطفَه، غُصنٌ تُعانِقه الرّياحُ، مُنَوّرُ[6]

يرسم ابن خفاجة ملامح حياة الترف في الأندلس من خلال مشهد شعريّ متكامل، فيصف مُغنّياً بارعاً، لا يُغنّي وحسب، بل يهزج الغناء أيضاً؛ أي كأنّما ينحت النغمات نحتاً، فيطربُ المستمعين إليه، ويصبح الليل الطويل تحت سلطان النغم قصيراً، وكأنّما التّرف هو القدرة على قهر ملل الوقت الطويل بإمتاعٍ لا ينضب، وفي البيت الثاني يُكمِل هذا المشهد وقد مزج الغزل مع الطبيعة والخمرة والغناء، مستخدماً الفعل غازلته، هذا يعني أنّ الحوار هنا ليس سمعيّاً فقط، بل وجدانيّاً أيضاً، ويُحدّد الشاعر المكان، فهو حيث الخمرة النقيّة والجنّة، وإنّ مجرّد وجود المشهد في جنّة هو أقوى تجليات الترف؛ فهي ليست مكاناً عادياً وحسب، بل هي فضاءٌ مغلقٌ من الجمال والخصب، وقد وظّف الشاعر الفعل تدمى كنايةً عن شدّة خضرة أغصان الجنّة، وكثرة ثمارها حتّى كأنّها تسيل عسلاً، ثمّ تأتي كلمة العين، والفعل تنظر؛ من أجل تأكيد حضور الحاسة البصريّة بوصفها عنصراً أساسيّاً في متعة المجلس، وتصل البراعة الفنّيّة إلى ذروتها في البيت الأخير من خلال استخدام التشبيه التمثيليّ، فالشاعر يُشبّه المُغنّي في حالة السكر بغصن شجرة

---

[1] المصدر السابق، ص١١١.

[2] يُنظر: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٩٩٣م، ص٢٨.

[3] يُنظر: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، د. محمد عبد المنعم خفاجي، ص٢٨.

[4] يُنظر: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، د. محمد رضوان الداية، ص٣١.

[5] تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، د. مصطفى عبد الرحيم، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٨٤م، ص١٩.

[6] ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، ص١٢٥.

تلاطفه الرياح وتلاعبه، فهنا يذوب المُغنّي في الطبيعة، والسكر هنا لا يُشوّه جماله، بل يزيده رقّةً وليونةً، كالغصن الذي تعانقه الرياح فلا تكسره بل تزيده جمالاً ورشاقةً، ويُكمل الشاعر وصفه موظّفاً كلمة منوِّر وهي مُشتقّة من النور، وبذلك يُضيف الشاعر بُعداً سماويّاً للمشهد؛ فالترف هنا ليس مادياً بحتاً وحسب، بل هو ترفٌ روحي يصل الإنسان من خلاله إلى حالةٍ من التناغم الكونيّ، فمن خلال هذا التحليل نستنتج أنّ ابن خفاجة يُقدّم لنا تجلّيات الترف بوصفها تجربةً جماليّةً متكاملةً، تبدأ من الغناء وتنتهي بالاتّحاد مع الطبيعة في رحلةٍ فنّيّةٍ تليق بروعة الحضارة الأندلسيّة في أوج ازدهارها.

لم يتغزّل ابن خفاجة بالمُغنّين وحسب، بل تغزّل بالمُغنّيات أيضاً، فها هو يُداعب مُغنّية في زمن الصبا قائلاً:

وَفتاةِ حُسْنٍ كُلُّها أعْجَازُ	غَنّتْ غِنَاءً كلُّهُ إعْجَازُ
لَذَّتْ أغَانِيها وَخَفَّتْ مَوقعاً	فكأنّما تطويلها إيجازُ [١]

يُقدّم ابن خفاجة في البيتين السابقين صورةً متكاملةً للترف الذي يجمع بين جمال الجسد وجمال الغناء؛ فالمُغنّية ليست مجرّد مطربة وحسب، بل هي فتاة حسن كلّها أعجاز؛ أي أنّها تمتلك جمالاً خارجيّاً وجمالاً تأمليّاً معقداً يتطلب ذوقاً راقياً لفك شفراته، فكأنّ الشاعر يوضح لنا أنّ لديه ترف الاختيار؛ فهو يختار النخبة من المُغنّيات اللواتي كُنَّ جزءاً من ترف القصور والطبقة الحاكمة، وفي الشطر الثاني ينتقل بنا الشاعر من ترف الشكل إلى ترف المضمون مستخدماً كلمة إعجاز التي تعني أنّ غناءها متقنٌ ويبعث إلى الدهشة، وفي الشطر الأوّل من البيت الثاني يجمع الشاعر بين قوّة التأثير ورشاقة الحضور، وفي الشطر الثاني يربط التطويل والإيجاز في مفارقةٍ ذكيّةٍ عن طريق توظيف التشبيه؛ فالمُغنّية تُطيل الغناء، لكن هذا التطويل لا يمل منه السامع؛ لأنه مليء بالمعاني والإبداع، فكأنّه إيجا في معناه، فهو يريد أن يُخبرنا أنّ المتعةَ لا تجعلنا نشعر بطول الوقت، وبذلك يتحوّل وصف المُغنّية عند ابن خفاجة من مجرّد مدح عادي إلى تصويرٍ للترف الأندلسي في أرقى تجلّياته.

٥. الترف في العمران (المسكن):

بلغت الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريّين أعلى مراتب الرّقي الفكريّ والثقافيّ والعمرانيّ؛ إذ شُيّدَت المساجد، وبُنيَت القصور والأبراج والمباني الفاخرة، وزُيّنَت بشكل مُبالغ فيه من مبانٍ ومنازل وملابس وفرش، ويُعدّ ذلك مظهراً من مظاهر التّرف، وهو من عوائد العمران البشريّ [٢]، أمّا فنّ وصف القصور والأبنية فقد تألّق على زمان الزهراء والزاهرة، بالإضافة لفنّ البناء وروعة الزخارف، والبراعة في نحت التماثيل، والتفنّن بغرس الأشجار، وزراعة الأزهار بمختلف أنواعها. وتُحدّثنا الأخبار عن المدن الأندلسيّة، فهي ذات أسوار تُقفَل ليلاً، ولأبوابها بوّابون يدفع الناس لهم مبلغاً من المال. ذلك كلّه أشعل خيال الشعراء فأسهم في سرعة نضوج فنّ وصف الأبنية والقصور، وكان منهم الشاعر ابن خفاجة الأندلسي الذي عاش ضمن هذا الازدهار، ووثّق ما وصل إليه الأندلسيون من ازدهار عمرانيّ [٣]، وسوف ندرس في هذا البحث مظاهر الترف في المسكن عند ابن خفاجة على النحو الآتي:

أ– الأبنية:

[١] ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م، ص٣٥٢.

[٢] يُنظر: مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م، ص٢١٦.

[٣] يُنظر: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، ص٣٨.

كان بناء البيت في المدينة الإسلامية في العصر الأندلسي يستجيب لاعتبارات عدة تُراعي خصوصيّة المجتمع المسلم بالدرجة الأولى، مع ما يتطلّبه البيت من راحةٍ وسكينةٍ، وجماليّةٍ، ولم يشُذّ الأندلسيون عن هذه القاعدة؛ فقد كان تصميم البيوت يتماهى مع هذه الشروط؛ فغُرَف المنزل تحيط بفناء، وهو صحنٌ يتوسّط الدار، تتوجّه أبوابها ونوافذها إليه، وكان الاهتمام بالواجهة الداخليّة المُطلّة على الفناء يظهر من خلال الاعتناء بزخرفته اعتناءً كبيراً، أمّا الواجهة الخارجيّة فلم تحظَ في العادة بالاهتمام نفسه إلّا في بيوت الميسورين من مثل التجّار وغيرهم، وكانت العناية بالفناء الداخلي أو الصحن بالغة الأهمّيّة؛ إذ إنه يعدّ مركز البيت، فيُزيَّن بالرخام، ويُغرَس فيه العديد من الأشجار المُثمرة كالبرتقال والليمون، ويُزوَّد بالماء، فيُشكّل بذلك حديقةً صغيرةً خاصّةً بالبيت[1]، وقد ولع العديد من الشعراء الأندلسيين بوصف الدُّور، فوصف ابن خفاجة داراً جديدةً قائلاً:

وقوراءَ بيضاء المحاسن طَلْقَةٍ، لبسْتُ بها الليلَ البهيم نهارا
يَزُرُّ عليها الصُّبحُ، نوراً، قميصه، وقد لبسَ الجوّ الظلامَ صِدارا[2]

من يقرأ البيت الأوّل يُلاحظ أنّ ابن خفاجة مزج بين وصف الدار والطبيعة؛ فصوّر الدار المستديرة أنّها كثيرة الضياء، واسعة المساحة، واستخدم الاستعارة المكنيّة؛ فصوّر الدار وكأنّها شخصٌ يرتدي ملابس؛ أي أنّ نور الدار المُستمدّ من جمالها وإشراقها قد غلب على ظلام الليل، ممّا جعل الليل يبدو وكأنّه نهارٌ داخله، وبذلك يكون قد خلق صراعاً ينتصر فيه النور على الظلمة، وهذا الشطر من البيت يحمل في طيّاته الطباقَ بين كلمة الليل والنهار لتقوية المعنى وزيادة جماليّة النصّ وإثارة المشاعر. وفي البيت الثاني نجد استعارةً مكنيّةً؛ فالشاعر حوّل الصبحَ من ظاهرةٍ طبيعيّةٍ إلى خيّاطٍ بارعٍ، والنورَ من شعاعٍ إلى قميصٍ، ويواصل في الشطر الثاني توظيف الاستعارة المكنيّة؛ فيبدو الجو وكأنّه شخصٌ يرتدي القميص الساتر للصدر، وبذلك تمكّن ابن خفاجة من تحويل العلاقة مع الكون إلى محفلٍ دائمِ الجمال؛ فالدار هنا ليست مسكناً، بل هي بيان جماليّ.

ب-الحمّامات:

عرفت البلاد العربيّة الحمّامات منذ الأيّام الأولى للفتوحات الإسلاميّة في بلاد الشام والعراق وفارس ومصر، فأُقيمت في العواصم والحواضر وعلى القوافل؛ للطهارة والاغتسال من الجنابة قبل أداء الصلاة، وقد أخذ العرب الحمّامات من البيزنطيين، لكنّهم لم يقصروا الحمّامات على الحكّام والأثرياء كما كان لدى العجم، بل حوّلوها إلى مكانٍ شعبيّ يدخل خاصّة الناس وعامّتهم على حدٍّ سواء، وبدل أن كانت عند العجم وسيلةً من وسائل اللهو والترفيه والمتعة، فإنّهم جعلوها حاجةً عامّةً للمسلمين؛ فهي تسهم في مساعدتهم على القيام بواجباتهم الدينيّة[3]، وانتشر بناء الحمّامات بكثرة في العصر الأندلسي، وعُرِفَ عن الأندلسي حبّه الشديد للنظافة. ولا شكّ في أنّ هذا المظهر الحضاريّ والعمرانيّ المترف المتمثّل في الحمّامات وما يتركه من أثرٍ في الأندلس، وجد صدىً واسعاً عند شعراء العصر الأندلسي، فهذا هو ابن خفاجة الأندلسي يصف حمّاماً فيقول:

أهْلاً ببيتِ النارِ منْ منزلٍ شِيدَ لأبْرارٍ وفُجّارِ

---

[1] يُنظر: المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، د. حسين يوسف دويدار، مطبعة الحسين الإسلامية، ط١، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٢٦٤.

[2] ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، ص١٢٦.

[3] يُنظر: الحضارة العربية حتى العصرين المملوكي والعثماني، د. قصي الحسين، المؤسسة الحديثة للكتاب، ط١، طرابلس الشام، ٢٠٠٤م، ص٢٧٩.

نَقْصِدُهُ مُلْتمِسِي لَذَّةٍ فنَدْخُلُ الجنّة في النّارِ[١]

ظهرت قدرات ابن خفاجة الإبداعيّة والفنّيّة في البيتين السّابقين من خلال وصفه للحمّام، فهو لا يدخل مكاناً للاغتسال وحسب، بل يعبر عتبة العالم الآخر، ولكنّه يُشير إلى أمرٍ غريبٍ ألا وهو أنّ الحمّام عنده شُيّد للصالحين والسيّئين، إنّها الديمقراطيّة المطلقة للجمال حيث يستوي فيه الجميع تحت سقفٍ واحد، فهنا يتحوّل التّرف من حالةٍ فرديّةٍ إلى ظاهرةٍ مجتمعيّةٍ، وفي البيت الثاني تأتي الكناية العبقريّة في وصف الدافع للذهاب للحمّام في عبارة: "نقصده ملتمسي لذّة"؛ فطلبُ اللذّة كنايةٌ عن طهارة البدن وراحة النفس، والجسد النظيف هو وعاءُ اللذّة الحقيقيّة، وفي الشطر الثاني تأتي المفارقة التي تهزّ الأعماقَ في عبارة: "فندخل الجنّة في النار"؛ فالنار هنا تعدُّ مجازاً عن سخونة الماء والمكان، والجنّة تعدُّ مجازاً عن الطهارة واللذّة الروحيّة.

٦. مجالس الخمر:

شهد الأدب الأندلسيّ –شأنه في ذلك شأن الأدب العربيّ عموماً– تداولاً لظاهرة الخمر، وإن كانت أقلّ شيوعاً مقارنةً بالعصر العباسي، وبسبب انتشار ظاهرة الشرب بين طبقات المجتمع الأندلسي التي ألهمت بعض الشعراء لوصف الخمر، ومجالس تأثيرها في النفس والجسد، وقد تحدّث العديد من الشعراء الأندلسيين عن الخمر، ومنهم الشاعر ابن خفاجة، وظهرت أعراف مرتبطة بشرب الخمر في زمانه تعكس الواقعَ الاجتماعيَّ الذي عاشه من مظاهر ترف وتنعّم، وبالنسبة لمجالس الخمر فقد كانت تُمثّل مجتمعَ الأندلس خير تمثيل؛ فهي مرآةٌ صادقةٌ تعكس حياةَ الناس وطريقةَ عيشهم، وكثيراً ما كانت هذه المجالس تُعقَد في أحضان الطبيعة، وكان الشعراء يصفونها بدقّةٍ وإتقانٍ، فها هو ابن خفاجة يصف مجلساً للشرب فيقول:

وليل تَعاطَينا المُدامَ، وبينَنا حديثٌ، كما هبَّ النّسيمُ على الوردِ

نُعاوِدُهُ، والكأس يَعبَقُ نَفْحةً وأطيب منهُ ما نعيد وما نُبْدي[٢]

يصف ابن خفاجة مجلساً لشرب الخمرة حيث تجتمع فيه أرقى مقوّمات المتعة الحسّيّة والمعنويّة، فيبدأ في البيت الأوّل بكلمة الليل ليُحدّد زمان انعقاد هذا المجلس، فهو إطارٌ زمنيٌّ مُتّسعٌ للتمتّع واللذّة وليس للرقاد، ويُجسّد ابن خفاجة الأندلسي صورةً من صور الترف الاجتماعيّ؛ وذلك من خلال تناول المُدام في جوٍّ من الأُنس والمحبّة، حيث تُوزَّع الخمرة بين المدعوين وتتبادل الأحاديث الشائقة، ويُشبّه الشاعر جمال حديثهم بريحٍ لطيفةٍ تُداعب الوردَ ليبرزَ روعة الحديث واللحظة الجميلة، وفي بداية البيت الثاني يُوظّف الشاعر الفعل نعاوده ليُشيرَ إلى استمراريّة المتعة واللذّة؛ وذلك من خلال إعادة الحديث وكأس الخمرة، وكأنّ هذه اللحظة الجميلة نمط حياة وليست مؤقّتة، واستعان ابن خفاجة بالاستعارة في الشطر الأوّل؛ فشبّه الكأسَ بالنبات العطريّ، واستخدم الطباق بين الفعلين نعيدُ ونُبدي ليؤكّد روعة الجلسة وغناها؛ فالسعادة لا تكون في اللحظة الحاضرة وحسب، بل فيما نستعيده من الذكريات أيضاً.

ووصف ابن خفاجة الساقي الذي يُقدّم الشراب في المجلس، وهذا الساقي الذي كان من المفترض أن يمتلك صفات عدة؛ وذلك لأنّ الأندلسيّين قد ورثوا عن أسلافهم المشارقة طقوساً معيّنةً في مجال تقديم الشراب، ومن أهمّ هذه الطقوس "أن يقوم غلامٌ، صغير السّنّ، أمرد الوجه [...] مشهودٌ له بالفتنة والجمال بتقديم كأس الخمرة لكل من

[١] ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. السيد مصطفى غازي، ص٣٧٣.

[٢] ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، ص٨٣–٨٤.

الحاضرين في المجلس وبالتتالي، ابتداءً من جهة اليمين، فإنْ لم يكن غلاماً فامرأة حسناء تتمايل غنجاً ودلالاً بين الحاضرين"[1]. والأندلسيّون كانوا يُفضّلون غالباً الغلمان على الفتيات؛ ولهذا السبب الساقيات من الفتيات كُنَّ يقلّدْن الغلمان، فيلبسْنَ ملابس الرجال، ويقصصنَ شعورهنّ على طريقة الشباب[2]. أمّا عند الشاعر ابن خفاجة فقد كان الأمر مختلفاً وغريباً؛ فهو لم يصف فتاة حسناء أو غلاماً جميلاً، وإنّما وصف ساقياً أسود اللون، إذ يقول:

رُبَّ ابن ليلٍ سقانا، والشَّمسُ تُطلِعُ غُرَّهْ
فظَلَّ يَسْوَدُّ لوناً، والكأس تَسطَعُ حُمْرَهْ
كأنّه كِيْسُ فَحْمٍ، قد أُوقِدَتْ فيه جَمْرَهْ[3]

يصوّر ابن خفاجة في البيت الأوّل مجلساً ليليّاً لشرب الخمر، ويستخدم الساقي الأسود عنصراً بصريّا رئيساً، ويُعبّر عنه بابن الليل؛ كنايةً عن لونه الأسود ليخلق إيحاءً بالغموض والسحر والأناقة، فالشاعر يتحدّى المألوف باختيار الساقي الأسود في قصور الأندلس الفاخرة. وفي البيت الثاني يخلق الشاعر تبايناً بصريّاً؛ فالسواد في وجه الساقي يتناقض مع حمرة الكأس. أمّا في البيت الثالث فيستعين ابن خفاجة بالتشبيه التمثيليّ؛ فقد شبّه صورة ساقٍ أسود اللون يحمل كأس الخمرة الحمراء بصورة كيس فحم اشتعلت فيه جمرة، ممّا يخلق صورةً حسّيّةً قويّةً من خلال تناقضات الألوان؛ فهو يبتعد عن الأوصاف المُعتادة للساقي، ويستبدل بها تشبيهاً مبتكراً يلفت الانتباه، ممّا يدلّ على خياله الخصب وبراعته في التعبير عن الجمال بطرائق غير مألوفة. وبذلك تمكّن ابن خفاجة من تحويل العيوب إلى مزايا؛ فالسواد أصبح رمزاً للجمال والتألّق.

الخاتمة والنتائج:

بعد هذه الجولة القصيرة في رحاب تجلّيات الترف في شعر ابن خفاجة، توصّلنا في هذا البحث إلى نتائج عدة، وهي كالتالي:

١. حوّل ابن خفاجة في شعره مظاهر الثراء المادّيّ إلى رموز جماليّة وإبداعيّة.
٢. مزج ابن خفاجة في شعره بين النعمة الحضاريّة والجمال الطبيعيّ في صورةٍ فريدةٍ تُعبّر عن روح الحضارة الأندلسيّة في أوج ازدهارها.
٣. عكس شعر ابن خفاجة الصورة الحضاريّة المترفة في الأندلس للمرأة والرجل.
٤. كشف الشعر عند ابن خفاجة عن ثراء نوعيّ في الأقمشة الفاخرة كالحرير، ممّا يدلّ على ذوقٍ راقٍ ووفرةٍ مادّيّةٍ.
٥. ربط ابن خفاجة وصف العطر في شعره مع الطبيعة والخمر.
٦. مزج ابن خفاجة وصف العطر في شعره مع الطبيعة والخمر.
٧. أدخل ابن خفاجة الطبيعة في وصفه للحلي والجواهر.

[1] الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، هنري بيريس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط١، مصر، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٣٢٧.
[2] يُنظر: المصدر السابق، ص٣٢٧.
[3] ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، ص١١٦.

٨. ساعد الترف الاقتصاديّ في المجتمع الأندلسيّ على انتشار الغناء، فوصف ابن خفاجة هذه الظاهرة في شعره.

٩. جمع ابن خفاجة وصف المُغنّين مع الطبيعة والخمر.

١٠. تجلّى الترف في المسكن عبر وصف البيوت الرحبة، والحمّامات التي تجمع بين جمال العمارة وروعة الطبيعة.

١١. كانت مجالس شرب الخمر نموذجاً صارخاً لحياة الترف واللهو في شعر ابن خفاجة.

المصادر والمراجع:

١. *ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس*، د. حسن محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.

٢. *الأدب الأندلسي التطور والتجديد*، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجبل، ط١، بيروت، ١٩٩٢م.

٣. *الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه*، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٩٧٩م.

٤. *الأعلام، خير الدين الزركلي*، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

٥. *تاريخ النقد الأدبي في الأندلس*، د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٩٩٣م.

٦. *تجلّيات الترف في بنية القصيدة الأندلسية*، عصر ملوك الطوائف (دراسة)، أماني أحمد عيد طه، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب (وزارة الثقافة)، ط٣، دمشق، ٢٠١٩م.

٧. *الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم*، ناصر بن عبد الله العمار، دعوة الحق، مكة المكرمة، ١٩٩١م.

٨. *تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري*، د. مصطفى عبد الرحيم، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٩٨٤م.

٩. *الحضارة العربية حتى العصرين المملوكي والعثماني*، د. قصي الحسين، المؤسسة الحديثة للكتاب، ط١، طرابلس الشام، ٢٠٠٤م.

١٠. *ديوان ابن خفاجة*، تحقيق د. السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م.

١١. ديوان ابن خفاجة، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م.

١٢. *ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لسان الدين بن الخطيب*، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٩٨٠م، ج٢.

١٣. *الشعر الأندلسي في عصر الطوائف*، هنري بيريس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط١، مصر، القاهرة، ١٩٨٨م.

١٤. *العطر عند العرب*، قيس كاظم الجنابي، مؤسسة الانتشار العربي، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠١٥م.

١٥. *لسان العرب*، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، ط١، بيروت، د. تا، ج٩.

١٦. *المجتمع الأندلسي في العصر الأموي*، د. حسين يوسف دويدار، مطبعة الحسين الإسلاميّة، ط١، القاهرة، ١٩٩٤م.

١٧. مجمع *الأمثال*، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د. تا، ج١.

١٨. *المحكم والمحيط الأعظم*، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي المعروف بابن سيده، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٩.

١٩. *مقدمة ابن خلدون*، ابن خلدون، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م

٢٠. *نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب*، الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني: تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.

٢١. *النهاية في غريب الأثر*، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزّاوي ومحمود محمد الطناهي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.